75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية • تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الرابع - العدد الرابع - ١٣٩٥ — ١٩٧٥

الغربة في شعر أبي تمام

بقلم

سلمان التكريتي

تفتحت عبقرية ابي تمام ، وهو صبي ، او قل وهو شاب يافع في قرية من قرى الله في سوريا تدعى « جاسم » وهي بالقرب من منبج على نهر الفرات.وقد كان ابو تمام آنئذ يسمع بالشام وحلب ، ويبهره صيت البصرة والكوفة ، وترن في مسمعيه اصداء اسم بغداد . وهو يعلم ان الكثير من الذين تقدموه ، قد شدوا الرحال من قراهم او مدنهم الى البصرة والكوفة او بغداد ، فلا ضير ولاعيب ان شد رحاله مثل غيره الى اكبر حاضرة من حواضر العالم آنئذ .. بغداد ، ذات العز والسؤدد ،بلد بشار بن برد وابن المقفع وابي نؤاس والاصمعي وخلف الاحمر والخليل بن احمد الفراهيدي . ولا شك انه مع عبقريته وسمو تفكيره ، ورصانة شعره واستيعابه للغة مع حداثة سنه ، لم تشفع له هذه كلها الا بان يكون غريبا في بغداد ، فلا يعرفه من الناس الا خاصة الخاصة ليس مثل ما كان في قريته « جاسم » بالقرب من منبج ، وهو اذا حل واذا تجول في طرقات بغداد ودروبها لا يابه به احد مثلما كان يابه به من يراه في « جاسم » . ومع كون هجرته وغربته من بلد الى بلد ، بعد بغداد ، الى نيسابور ثم الى سامراء ، كانت طلبا للرزق وسد الحاجة ، الا انها من ناحية ثانية تفصح لنا عن صعوبة معاناته ، وصعوبة مقاساته في هذه الهجرة ، وهذه الغربة . وقد ابان هذه الغربة المارقة بقصيدته التي يمدح بها ابا سعيد محمد بن يوسف الطائي فيقول :

غدت تستجير الدمع خوف النوى فقد
وعاد فتادا عندها كل مرفد

وقد قرئت هذه القصيدة ـ كما يقول ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني ، الجزء السادس عشر على عمارة بن عقيل ، بعد ان وفد الى بغداد ، وحينما هرع الناس اليه يكتبون شعره ، قال احدهم : ها هنا شاعر يزعم انه اشعر الناس طرا ، ويزعم غيره ضد ذلك ، فقال عمارة : انشدوني،فانشدوه القصيدة التي روينا مطلعها ، وحينما وصل الراوي الى :

ولكنني لم احو وفرا مجمعا
ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا
الذ به الا بنوم مشرد

قال عمارة : لله دره ، لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه على كثرة القول فيه ، حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه ، فانشدوه :

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغتررب تتجدد

فاني رايت الشمس زيدت محبة
الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

فقال عمارة : كمل والله ، ولئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد المراد واتساق الكلام ، فان صاحبكم هو اشعر الناس .

الهجرة وغربة ابي تمام

كان ابو تمام مضطرا الى السفر والتنقل او الهجرة .. كان يحلم وكان يتمنى كاي مفكر او اديب او شاعر ، يريد ان يساوق بين افكاره ومعطيات الحياة .. يريد ان يوائم بين مراده وبين العقبات التي تعترض سبيله سدا منيعا . وما زالت هذه الامنيات تسيطر على المرء حتى في سبعينات القرن العشرين ، فترى العقول المفكرة والنفوس القلقة والقلوب الحائرة تحاول الانتقال والترحال ، وعلى الاصح الهجرة طلبا لتحقيق هذه الامنيات . فعمدت الدول الراسمالية في العصر الحديث الى استنزاف هذه العبقريات من اوطانها بالغرائها ، كما كان يحدث في عصر ابي تمام او قبله ، اذ كان الخلفاء والامراء يتسقطون اخبار احسن الشعراء وشبيبتهم ، بل كانوا يتفاخرون بتقريبهم واقتنائهم ، لان الشاعر قديما كان هو الصحيفة المتجولة ، وشعره ينتقل بالرواية من لسان الى لسان ، فقصيدته هي الخبر المتنقل . والاعطيات حينما تنهال ، والهبات حينما تتوالى ، والخلع حينما تترى ، تغري هذه النفوس ، وتلين قناتها ، لتدخل في بحبوحة العيش الرغيد الذي تصبو اليه وقد هجر صاحبنا ابو تمام كما قدمنا قريته الصغيرة الجميلة الرابضة على نهر الفرات ، ليعبر مفازة عاصية وفلاة قاصية ، فيصل الى بغداد والكوفة فالبصرة ثم سامراء ونيسابور فنصيبين ثم الموصل .

فكم مهمة قفر تصفت متنه
على متنها والبر من آله بحر

ويهاجر ابو تمام الى منافيه ، وينتقل بين مهاجره ، ويتجول في اسواقها وازقتها ودروبها ، فلا يرى وجها يالفه ، ولا بسمة تهش له ، ولا نظرة تحنو عليه ، فاي عذاب اقسى من هذا العذاب ، واي غربة اصعب من هذه الغربة ؟! وعندئذ لابد ان يحدث الفصام بينه وبين هذه البيئة التي لا تشابه البيئة التي عاش طفولته فيها ، ويحدث الفصام بين الذات المستشرفة من ناديها على ناصية التوحد وبين المجتمع الذائب في دوامة التجمهر ، ويحدث الفصام ايضا بين غرور العدمية وبين تواضع

الجماعية المنطوية على ارهاصات الانسانية في مسالك الحياة ، ويتجول ابو تمام في تلك الطرقات والازقة والدروب فلا يعرف فنا مما رآه ، ولا يعرف عمرانا مما الف ولا شرفات مما تطلع ولا قباب ولا منائر ولا محاريب ، فتخضل عيناه بالدموع ، وينتفض صدره بالحسرة ويقشعر قلبه بالآهة ، فاذا به لا يجسر على البقاء تحت السقوف ، بل يستظل بسحابة تعبث بها الريح او شجرة ينفض اوراقها الخريف ، او صهباء تمور في ابريق فضي يتلألأ ، وهو يتشوف ايضا الى قوام جارية يتثنى ، وصوت يتفتح بدلال . وهو يشعر بهذه الغربة اللاهبة ، والهجرة الضاربة باقسى سوط على اديم الفؤاد ، لايعرف احدا في كل بلاد الم بها وتجول في زواياها ومنعطفاتها :

صريع هوى تفاديه الهموم
بنيسابور ليس له حميم
غريب ليس يؤنسه قريب
ولا يأوي لغربته رحيم
مقيم في الديار نوى شطون
يشافهه بها كمد قديم
يمد زمانه طمع مقيم
هو الياس الذي عقباه شوم
فلا عجب وان كانت ركابي
بارض طار طائرها المشوم
فقد فارقت بالغربي دارا
بارض الشام حق بها النعيم

ما زال حنينه متقدا بالغرب ، يعني به سوريا ، او يعني به العراق ، بعد ان اغترب عن احديهما او عن كليهما ، وحل لطلب الرزق او الثراء في نيسابور ، فلم يانس وحدته ، ولم تنسه غربته جارية لفاء جدلى القلب او قينة ميساء عذبة الصوت ، او كاس عامرة بالصهباء . وهو يشعر بالبعد النفسي بينه وبين غيره من هؤلاء القوم الذين يعيش بين ظهرانيهم في نيسابور .وقد كان يرى ان الغربة لا تجافي كل طالب، بل انما هي انيسته وموئل سعادته ، فقد يحظى الغريب بالغريب ويستانس به :

سعدت غربة النوى بسعاد
فهي طوع الاتهام والانجاد
لا عدمتم غريب مجد ربقتم
في عراء نوافر الاضداد

حتى في الحشد والتجمهر ايضا ، لا يشعر ابو تمام بالاطمئنان ، ولا ترفرف على ذاته اجنحة السلام . فهو حتى في الحج نجده غريبا متألما وحزينا ، تلفه اجواء الوحدةوالضياع، فلا يجد الاطمئنان ولا السلام ، حتى في عيني فتاة عاشقة او غانية متيمة .

ولولا الله يوم منى لابدت
هواها كل ذات حشا هضيم
رمين اخا اغتراب واكتئاب
بعيني جؤذر وبجيد ريم

فتابى عليه هذه الحاجة الجميلة الحسناء الوضاءة الابتسامة وهو كلف بها ، على خلاف ما كان يفعل ويقول عمر بن ابي ربيعة ، حتى يوم ان كان الاسلام في عزه وابانه ، فهو يتخلع ويفحش ، وهي ، اي فتاة ، تستجيب .. وتستملح ما يقول وتستطيب ما ينشد ، وهو يلاحقهن ، وهن يطلبنه في وادي العقيق ، وعند باب شيبة وحول الكعبة . لكن ابا تمام مجفل خائف ومتشائم ، فتجار ذاته بالشكوى وتصخب نفسه بالبلوى في تلك الغربة ، وهو ذلك الغريب .

وهيهات ماريب الزمان بمخلد
غريبا ولا ريب الزمان بخالد

وتستكمل الغربة اجواءها وشروطها ، حينما يبدأ الزمن بزراعة الشعرات البيض في مفرقه ، ويغزو المشيب راسه ، فالشعرة السوداء ايضا صارت تشعر بغربتها بين الشعر الابيض الذي زاحمها وضيق عليها .

بعد اشتهاب الثلج والضريب
كالكهل بعد السن والتجريب
تبدل الشباب بالمشيب
كم آنست من جانب غريب

وتعج الغربة بعد هذا ،بحياة الشاعر، بالفها كما الفته، ولا يستسيغ غيرها ، فقد عهد الترحال والنوى والبعاد ، وبدات الذات .. العيون ، تستجير الدمع خوف النوى الذي صار لازمة لحياته ، حتى اصبح اي مكان خشنا جافيا .. شوكا وقتادا ، يظل فيه سهران يتوجع ، ويقظان لا يقر له قرار ، ما يستلذ بنوم ، وما يستريح في مكان ، مثلما استلذ بنوم الغربة واستراح لمكانها . واعجب الشعراء والنقاد بالصورة الخلابة التي رسمها ابو تمام بمثل تلك المعايشة والمعاناة ، حتى روى ابو الفرج الاصبهاني ما اسلفنا القول عنه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد
وعاد فتادا عندها كل مرقد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا
الذ به الا بنوم مشرد

لقد عاش ابو تمام هجرة مكانية ، وهو يعاني مرارة التشرد ووحدانية الغربة ، وقد استكملت الغربة صورتها المكانية بانتقالاته المستمرة وعدم استقراره في بلد . فقد انتقل من سوريا الى العراق ثم فارس فالحجاز ثم الى نصيبين وعاد الى العراق . فلم يعرف الوجوه كما لم تعرفه الوجوه ايضا

الغربة النفسية ـ التعامل الحياتي لابي تمام في المجتمع .

بعد ان استكملت الغربة المكانية جوانبها في حياة ابيتمام وبعد ان زرعته جسدا في طرقات المدن المختلفة ، بدات الغربة النفسية ، .. غربة الذات عن المجتمع تتبلور . فقد يعاني الانسان من الغربة المكانية لكن القليل من الناس هم اولئك الذين يعانون من الغربة الذاتية .. غربة النفس عن المجتمع الذي تعيش فيه .والغربة الذاتية يشعر بها ويعانيها اكثر المفكرين والمثقفين ، حتى لو لم يعانوا من الغربة المكانية .

كان لنفسي امل فانقضى
فاصبح الياس له معرضا
استخطني دهري بعد الرضى
وارتجع العرف الذي قد مضى
لم يظلم الدهر ولكنه
افرضني الاحسان ثم اقتضى

فان المجد الذي يطلبه المفكر او المثقف ، ليس لمحض ذاته، وغاية في ذاته ، انما هو وسيلة لغاية اسمى ، تلك هي الثمار

الدانية التي تتاتى بعد ان يتمكن من فرض افكاره ومثله وقيمه. وقد كان ابو تمام من هذاالنوع الذي عاش للمجد الذي لم ينله

طلب المجد يورث المرء خبلا
وهمومـا تقضقض الحيزومـا
فتراه وهو الخلي شجيا
وتراه وهو الصحيح سقيما

فلم يبق لابي تمام شيء بعد ان سرق المجد حاشية الامير والحاجب والخليفة ، وأخذوا يعبثون بكل القيم ، لكنه هو يظل كاي مفكر او مثقف يعتقد بانه يلعب دورا في الحياة ، ومن المحتمل ان يلتفت اليه ، فيستعيد مكانته ، فليس هناك من هو اهل لان يلعب هذا الدور غيره . وقد حسب البعض بان هذه الصورة او هذا المجال الذي احتوى ابا تمام انما هو سقوط في حضيض الغرور والكبرياء والتعالي . وقد لا يعلم من يحسب هذا الحساب بان الفرد الذي لا يثق بنفسه، ويعتز بها ، لن يتمكن بعدئذ من ان يحقق افكاره ويفرض قيمه .

لكن شاعرنا يتراجع وينكص على عقبيه وجلا وخجلا ، بعد ان تاكد بانه لن يجد منفذا .. ثغرة ، ينطلق منها ، ولم يبق احد ينجده ويسعفه في مسيرته الطويلة تلك ، حتى يلتفت الى نفسه فينكرها ولا يصدق انه هو نفسه :

لا انت انت ولا الديار ديار
خف الهوى وتولت الاوطار

حتى الود الذي تفرضه الصداقة ، لم يجده ابو تمام ، فقد انشغل الناس عنه ، وابتعدوا ، وان لم يبتعدوا فعلى الاقل لم يراعوا حرمة وجوده بينهم ، وهو الغريب الذي جاء من بعيد .. ولو لم يات من بعيد ، لوجد شيئا من هذا الود ، وهنا لا يعرفه احد ، فلن يمنحه احد منهم هذا الود ..

الود للقربى ولكن عرفه
للابعد الاوطان دون الاقرب

وقد تنهال عليه الهبات والاعطيات ، وقد يثرى ، ويغتني غناء المال ، المادة ذلك العرض الزائل فقط ، لكنه لا يثرى ولا يغتني بالود والحب ، بل لم يحقق ما ارق من اجله ، وما جاهد في سبيله ، وما كد وكدح في سبيل ان يناله .

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد
ولا المجد في كف امرىء والدراهم

ويزداد ارقه ، وتطول لياليه ، فيتعذب ويتالم ، ويرى الحزن باديا في كل وجه .. في كل مكان يترصده ،ينشب سهامه في هذا القلب المعنى ولو كانت الايام مفرحة ، والليالي مسرة لكانت تلك الايام تكر ، والليالي تفر ، لكن الاسى والشوق يفرضان على المرء شعورا بالتباطؤ .. الزمان النفسي .. الطويل .. الذي لا ينقضي كالعذاب :

بيوم كطول الدهر في عرض مثله
ووجدي من هذا وهذاك اطول

وتضيق به رحاب الارض ،تضيق به حدود الشام ومفازات العراق ، وهضاب خراسان ، فيحن الى بلده .. الى الوطن الام ، ويحن الى مرابع الطفولة ، ورفقة الصبا ومسارح الشباب . ولكن هيهات والف هيهات .. ولا ينفع الندم ، فلقد خرجت ياابا تمام ، وضقت ببلدك وهجرته ، وسرحت في عرض البلدان وطولها ، لكنك ما وجدت ضالتك ، فنكصت تفتش عن الطريق الاول الذي فادك من الشام ، كنت تحمل في راسك افكارا وامنيات واحلاما .. وهي الهموم ، واعتقدت بانك واجدها في مكان اخر غير الشام لكنك ما وجدتها :

ما اليوم اول توديعي ولا الثاني
البين اكثر من شوقي واحزاني
وما اظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تبلغني اقصى خراسان

وتعتلج الاشواق في ذات ابي تمام .. وتقسو على هذه الذات ، فيبتعد عن الناس ، وينعزل ، فيلهو متوحدا ، ويعبث منفردا ، لانه ما وجد احدا قد آواه عن محبة ، وطمانه عن ود ، انما هو شاعر ، يفاخرون به ويفخرون بافتنائهم له فقط ، ويعتزون به لانه يؤكد لذواتهم ويسري عن نفوسهم الاحزان اذا ارقوا او اذا ناشتهم تباريح الوحدة في ساعات الليل اذا داهمهم شوق الى جارية نفور ..

صريع هوى تفاديه الهموم بنيسابور ليس له حميم

غربة ابي تمام الذاتية

تعطينا تراجم ابي تمام واخباره انه قد نكب العديد من المرات وكانت تلك النكبات قاسية على كل قلب ، بله الشاعر ، وشاعر مثل ابي تمام المرهف الحس ، الرقيق المشاعر ، الواسع الخيال ، الحاد الانفعالات . واي امرىء لا يحزن ولا ياسى اذا فقد اعز الناس عليه ، وقد فقد ابو تمام عددا من الابناء سجل اخبارهم في شعره ، فيذكر لنا ديوانه بان ابنه محمدا قد مات ، وقد يكون احمد المذكور ابنه ايضا ..

طوتني المنايا يوم الهو بلذة
وقد غاب عني احمد ومحمد
جزى الله ايام الفراق ملامة
كما ليس يوم في التفرق يحمد

وقد يكون ابنه الاخر « حسين » قد مات بعد « محمد » بقليل او كثير ، لا ندري فالمهم انه يرثيه ويحزن له :

كان الذي خفت ان يكونا
انا الى الله راجعونا
اصبت فيه وكان عندي
على المصيبات ان يعينا

ويموت اخوه :

اني اظن البلى لو كان يفهمه
صد البلى عن بقايا وجهه الحسن

وقد لا يموت له اخ واحد ، بل اخوان او اكثر ..

تتابع في عام بني واخوتي
فاصبحت ان لم يخلف الله مفردا

ولا يكتفي الموت باختزام اولاده واخوانه ، بل يزيد في البلوى ، ويعظم في الكارثة ، فيخرم عددا من اصدقائه الاوفياء ، وقد يكون قد مات له ثلاثة اصدقاء في يوم واحد ، او في شهر واحد ، لا ندري ايضا ، فهو يرثيهم :

ثلاثة سلبتنيهم حتوفهم
بعد ائتلاف وخلتني واحزاني

وبالاضافة الى ما اختزم الموت من ابناء احبة ، واخوان اعزاء ، واصدقاء الف اوفياء ، فقد سعى به الساعون ، ووشى

به الواشون ، واخذوا ينتعلون الحسد ، فيوقعون بينه وبينهم الامير او الوزير ، او الصاحب والخدين :

سعاية من رجال لاطباع لهم
قالوا بما جهلوا فينا وما علموا

ولو كانت السعاية من واحد لهان الامر ، ولو كانت الوشاية من فرد لاحتملها ، وما جلت ، ولكن العدد اخذ يتكاثر ، والكم شرع يتعاظم حتى اخذ منه الخناق ماخذا ، وضيقوا عليه تضييقا ، لم يجد نفسه الا صريع حقد اسود وضغينة خبيثة ..

لا يدهمنك من دهمائهم عدد
فان جلهم او كلهم بقر

وتتحول المسالة من عداوة يغمرها هؤلاء الناس ، العدد الغفير من الحاسدين ، والسعاة الواشين ، الى عثرات تترصد الصديق ..

ما للخطوب طفت علي كانها
جهلت بان ندائك بالرصاد

وترصد طريقه ايضا بعض الهبات والاعطيات من هذا وذاك ، عساها تخفف من وطاة الوحدة والشعور باليأس..

ارجي ان تكون محل يسري
ومنتصري على الزمن الكنود

واخذ بعضهم يخفف عنه البلوى :

خففت عني الدهر بعد ملمة
تركت لنابيه علي صريفا

ويتطلع حواليه فيرى النعم التي قسمت بين الناس ، فاذا هي اكثر من قسمة ضيزي :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل
ويكدي الفتى من دهره وهو عالم
فلو كانت الارزاق تجري على الحجى
هلكن اذا من جهلهن البهائم

لكن البلوى تسيطر عليه ، وتغرز نابها حتى العظام . .

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وينوء بهذه البلوى ، فيجاهد ، لكنه لم يقدر ، يريد ان يزيحها عن كاهله ، وينفض عن منكبيه اضغاث المصيبة ..

ما لي بعادية الايام من قبل
لم ينن كيد النوى كيدي ولا حيلي

وتندلع نار الالم في هذه اللذات وتحرق الارم بعد ان حفتها صنوف النعماء ..

وكاس لهسول الاماني شربتها
ولكنها اجلت وقد شربت عقلي

وتظلم الدنيا حياته وتطفىء شموسها ..

عادت له ايامه مسودة
حتى توهم انهن ليال

ولا تنفك هذه الخطوب والمصائب عن التشبث بجلابيبه ..

تروح علينا كل يوم وتغتدي
خطوب كان الدهر منهن يصرع

ثم لا تتحمل ذات ابي تمام ، فيصرخ بعد ان جار بالشكوى، فوجد انها لم تقدم له شيئا ، فيصاب بالانهيار ،ولكنه لا يعلن يأسه من الفكر ، ولم يلق سلاحه الذي لايملك سواه ، ذلك هو القلم ..

التحليل السيكوباثي لشخصية ابي تمام

لم يشعر ابو تمام بالسعادة طيلة حياته ، والسعادة كما يقرر علماء النفس هي دوام السرور مدة طويلة . وبالطبع لا يكون ذلك الا اذا كانت ذات الفرد .. ذات نزعة ، او نزعات قد وضعت موضع التنفيذ العملي . وهنا تجدر الاشارة الى توضيح معنى السرور ، والذي دوامه يؤدي الى السعادة . فالسرور ليس معناه اللذة المادية البحتة . فقد يلتذ الفرد ، اي فرد بشيء مادي ، وقد يلتذ فرد ، اي فرد ايضا ، بشيء غير مادي، كان يؤدي عملا معينا ، او يقوم بنشاط مرصود ، وليس بعجيب ان نقول بأن السعادة قد لا تكون متوفرة لشخص بين برديه المال والجمال ، كما قد تتوفر لشخص فقير بائس او محروم ، اذ ان الاول .. ذلك الانسان الذي لم تتوفر له السعادة ، قد فقد الارتباط بنزعة يتحقق تنفيذها العملي ، بينما يكون ذلك الفقير الكادح ، قد وضع نزعة معينة موضع التحقيق العملي . وقد نجد شخصا لا يبالي بالموت سعيدا ايضا ، لانه قد حقق ما كان يصبو اليه ، بل قد نجد من يلتذ بالقيام بعمل قد ينجح فيشعر بالسرور ، لان ذلك العمل يدوم ، اما اذا طال امره ، وصار يحقق مكاسب ونتائج جيدة يوما بعد يوم ، فانه لا شك يحقق سعادته ، وهذا يعني ان مثل هذا الشخص متكامل الشخصية ، قد توضحت معالم اعتبار الذات لديه . نقول هذا لاننا نعرف بان ابا تمام عليم باللغة ، لا توقفه اللفظة ولا تأسره العبارة ، فهو يضعها في ميزانها ، ويختار لها مكانها، ويعطيها مدلولها . واللفظة لا تقوده ، حتى يسقط فيما لايريده، وما لا يعنيه ، فهو يقدر ان يقول « ابيض » ولا يقول « اسود ». لكنه اثر ذلك ، لانه يريد ذلك . فقد سيطرت عليه روح التشاؤم بعد تلك المصائب اعتبارا من موت ابنائه واخوته واصدقائه وخلانه ، وانتهاء بالحرمان من نيل الامجاد . فهو اذن متاثر بهذه الكوارث ، منسحق تحت تاثيرها ..

وهكذا تالم ابو تمام واستعذب الالم حتى صار شخصية مازوكية Masochist . احب الالم للالم ، وتلذذ بالصبر للصبر ، واغرم بالبكاء للبكاء .

فمعنوا فكان بكاي حولا بعدهم
ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها
بالدمع ان تزداد طول وقود

اما اشاراته للدموع ، فهي ليست عبثا ، ولم ينطق بها الا وهو يراني لنفسه مما اصابها ، بل وهو يستعذب هذه الدموع ويتلذذ باهراقها . لقد ذكر الدموع ومجراها وانسكابها العديد من المرات ، ولو كان ذلك في سبيل الحب والهجر ، لكان فيه وجهة نظر ، لانه مما يصيب كل انسان في فترة من فترات حياته ، ولكنه قد ذكره في مواطن اخرى ومقاصد لا صلة لها بالحب ، ومع ذلك فان الرجل الرجل ، وليس المراهق ، لايهرق الدموع ولا يسكبها ، فقد يصمد للواقع ان لم يتحده ، وقد يتصلب ان لم يشجب ، لكن ابا تمام ما فعل ذلك ..

اغرى التجلد بالتبلد حرقة
امرت جمود دموعه بسجوم

ويقول ايضا ..

هي فرقة من صاحب لك ماجد
فغدا اذابة كل دمع جامد

وتشرق الدموع بالتهطال مدرارا ..

دعا شوقه ياناصر الشوق دعوة
فلباه كل الدمع يجري ووابله

ويتحول الدمع الى بكاء ، والبكاء الى نواح ، ثم الى مناحة ..

دار اجل الهوى عن ان الم بها
في الركب الا وعيني من منائحها

وهو لا يتالم هنا لانه استعذب الالم ، وهو لا يرفض لانه ما آمن بالرفض وهو لا يشعر بالحرقة ، لانه لا يشعر بانه يحترق ، بل يدعو الى المزيد من العذاب والالم ..

اصب بحميا كاسها مقتل العقل
تكن عوضا ان عنفوك من النبل

بل هو يقول انه ما استلذ الا حينما كان يزداد الم البعاد والهجر عنده وقد يكون الصد ايضا ..

ناجيت ذكراك والظلماء عاكفة
فكان ياسيدي احلى من الشهد

وقد يكون ذلك بسبب شعوره بالضعة ، وهذا مبعثه الشعور بالنقص . فقد كان لا يريد ان يكون رجلا متسلطا ، قويا ، محبا ، باذلا ، قائدا ، بل كان يميل الى الخنوع والاستخذاء ، ويميل الى الاستعطاف ، ويحب العطف ، يريد ان يكون المعطوف عليه ، وموضع الاهتمام لضعفه ، لا لقوته وباسه وجبروته ، وشاعريته ..

تكفل بالايتام عن آبائهم
حتى وددنا انا ايتام

وقد ينتقل في احوال ومقامات العذاب ، كما ينتقل المتصوفة في احوال ومقامات العشق الالهي ، ليرفضوا الجسد ولذاته ، حتى تتوحد نفوسهم في التواجد الالهي ، لتتم الوحدة التكاملية في وحدة الوجود .. الذات الالهية ، بعد ان يكون الجسد ولذاته عقبة في سبيل الوصول الى الاتحاد الكامل بالاله الذي لم يتجسد ..

اصبري ايتها النفس
فان الصبر احجى
نهنهي الحزن فان
الحزن ان لم ينه لجا

وقد فاق ابو تمام المتصوفة الزاهدين والمتقشفين المولعين بالعذاب وترويض الجسد ، حتى يحترق ، لتتبلور الذات وتتجوهر بعد ان تنزع عنها كل اوراق الجسد . والمقام الذي ابتدعه ابو تمام وفاق به المتصوفة ، هو مقام الياس . وهذا اخر مقاماته في الحين الذي يكون آخر مقامات المتصوفة هو مقام القربة ومرحلة الكشف والتجلي الالهي ، في التصوف الاسلامي، وهو الفناء او الحلول في مصطلح التصوف المسيحي او النرفانا في التصوف الهندي . ونحن نعرف بان الفلسفة الصوفية ما هي الا حركة هروب من المجتمع ومن مشاكله والاسلام الثورة الاجتماعية العظيمة ما رفض التصوف الا لانه يقوم على مثل هذه الاستسلامية والخنوع ، فلا رهبنة في الاسلام، وحياة النبي محمد قدوة حسنة للمؤمنين الصالحين . ولو كانت الحركة الصوفية ، حركة تقدمية اصلاحية وثورية ، لالتفت اليها الاسلام ، والتفت اليها النبي محمد ، وجسدها في سلوكه ودعوته ، لكنها ما كانت كذلك . ويوم عزف بعض الصحابة عن الحياة الدنيا ، نهاهم النبي ، ونهاهم الاسلام ، ورسم لهم سلوك النبي محمد قدوة حسنة ، ونحن هنا ، حينما نتحدث عن ابي تمام بهذا المستوى ، فانما نحن لا نحمل عباراته وكلماته اكثر مما تطيق ، وهو العارف باللغة والمتفصح بها ، المدرك لمدلولاتها . ولو كان غير ابي تمام ، ربما لم نحاسبه على الفاظه وعباراته ، مثل حسابه ، لكن ابا تمام رجل اخر وشخصية اخرى ، تحتاج الى مثل هذه القسوة ، ومثل هذا الضبط والتقييم . فليس عبثا ان يقول هذه اللفظة او تلك ، وليس عفوا ان ينطق هذه العبارة او تلك ، فهو اذن يعني ما يقول . وهو لم يقع في فصام لغوي ، بقدر ما وقع في فصام نفسي . وان هذا الفصام النفسي ليس ولعا عاديا ، ولا شوقا مترفا الى مسألة دون متناول يديه ، انما حدث ذلك لابي تمام ، لانه فقد الاعتبار بالذات وفقا لانعدام او لضعف التفاعل الشخصي بينه وبين البيئة الاجتماعية . ولا شك ان موقفه الاجتماعي كان ذا صراع نفسي شديد لم يتخلص منه الا بعد ان اصيب باليأس والاستسلام . فقد ظل يحاول ان يفرض قيمه ومثله ، ولكنه لم يتمكن في مثل البيئة التي عاش فيها غريبا ، وبالطبع اما ان يتمكن الغريب من ان يسيطر سيطرة تامة بقدرته الابحائية ، وينال ثقة اعجازية تؤهله بعدئذ الى فرض ارائه والسيادة على اولئك القوم الذين يعيش بين ظهرانيهم ، واما ان يفشل فشلا ذريعا ، فلا يستأنس احد بآرائه تلك ، فينطوي على ذاته ، وينعزل او يصبح انسانا عاديا في المجتمع ، لكن الصراع النفسي يبدأ بالقيام بدوره والشروع باحداث تأثيراته فيؤدي به اما الى التمرد الظاهر بصور مختلفة كما يحدث للانبياء والمصلحين والثوار ، واما الى اليأس والخنوع . كما يحدث للمتصوفة وشاعرنا ابي تمام .

ولكن شخصية ابي تمام المرضية ، لا تعني انه لا يستحق الاهتمام ، او ان شعره مرضي ايضا ، بل قد نقول العكس تماما ، اذ ان كثيرا ما يكون المرضى ، او الذين يعانون من فصام نفسي بينهم ، وبين مجتمعهم ، يجعلهم يتكلمون بالصراحة التي لا يجرؤ عليها الانسان العادي ، وبالتالي هو يفصح عن دخيلة نفسه بكل ثقة واعتزاز من ناحية ، ويصل الى اعلى مراقي الابداع من ناحية ثانية ، بفضل شجبه للقيم والمثل التي لم يتمكن من كسرها وتحطيمها . وهكذا يكون ابو تمام قد ترك لنا تراثا خالدا بفضل هذه الحالة المرضية من الناحية النفسية اللاتية ومن الناحية النفسية الاجتماعية ، تلك الشخصية التي تعاني من هوس وقلق نكوصيين . ولهذا قد لا يجرؤ غيره من الاسوياء على الافصاح عنها ، والا لم يتمكن من ان يقول ما اعجب به عمارة بن عقيل حتى قال انه قد حبب الينا الاغتراب وذلك في قوله :

ولكنني لم احو وفرا مجمعا
ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا
الذ به الا بنوم مشرد

قال ذلك ابو تمام ، وهو في تمام عزه الادبي ، واحتفاء الناس به ، وهو سمير الخلفاء ، ونديمهم ، وقد لا يجرؤ ان يقول هذا القول لو كان سوي الشخصية ، صحيح اللذات ، لكن ابا تمام كان مهاجرا غريبا ومنفصم الشخصية .

وقد نقسو عليه ، فنقول ، انه قد وصل الى اعلى درجات المرض النفسي ، بشخصيته السيكوبائية ، حينما لم يجد بديلا لواضيع عواطفه ، ونحن نعلم بان العاطفة تتولد بالالفةوالتكرار، وهذا معناه ، اننا يمكن ان نحول عواطفنا من موضوع الى موضوع ، اما من لم يتمكن ، فلا شك قد غلبه الصراع النفسي واهوى به في هاوية الشخصية المرضية السيكوبائية .. قال علي بن الجهم :

وهذا معناه ، اننا يمكن ان نحول عواطفنا من موضوع الى موضوع، اما من لم يتمكن، فلا شك قد غلبه الصراع النفسي واهوى به في هاوية الشخصية المرضية السيكوبائية .. قال علي بن الجهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

لو كان هذا الاول هو الاحب ، لما احببنا بعده الاحسن والاجمل ، ولا نعتقد بان الشخص الطبيعي يحب ابنه الاول اكثر من الاخير ، او انه يحب قصته الاولى اكثر من الاخيرة ، وهكذا .. لكن الذي يشعر بهذا الشعور لا شك انه قد سقط في بئر لا في معركة .. بصمت ، وليس بضجة .. وبغفلة وليس بوعي .

* * *

المراجع : -

(١) الدوافع النفسية : مصطفى فهمي - طبعة ١٩٥١ القاهرة

(٢) الاغاني : ابو الفرج الاصفهاني - طبعة ١٩٥٩ بيروت

(٣) العقد الفريد : ابن عبد ربه - طبعة ١٩٥٣ القاهرة

(٤) اخبار ابي تمام : ابو بكر الصولي - طبعة ١٩٣٧ القاهرة

(٥) الذات والغرائز : فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي - طبعة ١٩٥٤ القاهرة

(٦) كتاب البديع : عبدالله بن المعتز : تحقيق المستشرق اغناطيوس كراتشكوفسكي - طبعة اوفسيت دار الحكمة - دمشق .

(٧) الفلسفة الوجودية: جانفال : ترجمة تيسيرشيخ‌الارض - طبعة ١٩٥٨ بيروت

(٨) التطور الخالق : بركسون : ترجمة بديع الكسم -طبعة ١٩٥١ بيروت

(٩) معالم التحليل النفسي : فرويد : ترجمة محمد عثمان نجاتي - طبعة ١٩٥٣ القاهرة

(١٠) شخصيات قلقة في الاسلام : عبدالرحمن بدوي -طبعة ثانية ١٩٦٤ القاهرة

(١١) التصوف الاسلامي العربي : عبداللطيف الطيباوي - طبعة ١٩٢٨ بيروت .

(١٢) محي‌الدين بن عربي : طه عبدالباقي سرور - طبعة (...) القاهرة

(١٣) جميع الشواهد الشعرية من ديوان الشاعر ابي تمام: طبعة صادر - بيروت .